

سلسلة رسائل الفضيلة ١٩

حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ

سلسلة الفضيلة
للنشر والتوزيع

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار

سلسلة رسائل الفضيلة

(١٩)

حَبْلُ الدِّينِ الْمُبْدِيُّ

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

حقوق الطب مع محفوظات

الطبعة الأولى لدار الفضيلة

(1435 هـ - 2014 م)

رقم الإيداع: 2014 - 1192

ردمك: 8 - 015 - 58 - 9947 - 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو - المحمدية - الجزائر

هاتف وفاكس: 021519463

النقل: 0559069992

التوزيع: 08 62 53 661 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ذي الإفضال والإنعام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المَلِكُ العَلَّامُ، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورسوله خيرُ الأنام، صَلَّى اللهُ وسلَّمَ عليه وعلى آله وصحبه الأئمة الأعلام.

أمَّا بعد؛ فَإِنَّ «جبل الله الممدود» هو القرآن الكريم، وقد جاءت تسميته بهذا الاسم في السُّنَّة الصَّحِيحَة الثَّابِتَة عن رسولِ الله ﷺ، فقد روى الإمام مسلم في «صحيحه»^(١) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَلَا وَإِنِّي

(١) برقم (٢٤٠٨).

تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنْ
اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ».

وروى الإمام أحمد في «مسنده» ^(١) من حديث أبي سعيد
الخدري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ
السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ».

وروى ابنُ أبي شيبة في «مصنّفه» ^(٢) من حديث أبي
شُرَيْحٍ الخزاعي رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَبْشُرُوا
أَبْشُرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ
اللَّهِ؟» قَالُوا: نَعَمْ؛ قَالَ: «فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبُ طَرَفِهِ بِيَدِ
اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا،
وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا».

(١) برقم (١١١٠٤)، وقال الألباني: «إسناد حسن في الشواهد» «الصَّحِيحة»
(٣٥٧/٤).

(٢) برقم (٣٠٠٠٦)، وقال الألباني: «صحيح على شرط مسلم»
«الصَّحِيحة» (٢/٢٣٠ رقم ٧١٣).

وروى الدارمي^(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ مُحْضَرُهُ الشَّيَاطِينُ يُنَادُونَ يَا عَبْدَ اللَّهِ: هَذَا الطَّرِيقُ؛ فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ حَبْلَ اللَّهِ الْقُرْآنُ».

وهذا الحبل الممدود قد أنزله الله - تبارك وتعالى - هدايةً للبشر، وصلاًحاً للنَّاس، وذكرى للمؤمنين، وشفاء لما في الصدور، وضياءً ونوراً وبركةً لمن كان من أهله، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٩]، وقال - جلَّ وعلا -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٦].

(١) في «سُنَّته» برقم (٣٣٦٠).

أنزله الله - تبارك وتعالى - إلى عباده ليكون منهجاً لهم في حياتهم، وفي أخلاقهم، وفي آدابهم، وفي معاملاتهم، وفي تعبدتهم وتقرُّبهم إلى الله ﷻ، ولهذا لما سُئِلت أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ نَبِيِّنا ﷺ قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(١)، أي أَنَّ كُلَّما في الْقُرْآن من عِبادةٍ وَخُلُقٍ وَأَدبٍ وَمَعامَلَةٍ إلى غيرِ ذلك قد اتَّصَفَ بِهِ نَبِيُّنا ﷺ على التَّام وَالْكَمال، فَكانَ أَعْبَدَ النَّاسِ لِلَّهِ، وَأَكْثَرَهُمْ خُشْيَةً، وَأَعْظَمَهُمْ تَقْوَى، وَأَكْمَلَهُمْ خُلُقًا، وَأَحْسَنَهُمْ أَدَبًا، وَأَطْيَبَهُمْ مَعامَلَةً.

قال ابن القيم رحمته الله كما في كتابه «التَّبَيَّان في أَقسام الْقُرْآن»^(٢): «فهذه كانت أَخلاق رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُقتَبَسَةُ من مَشكاة الْقُرْآن، فَكانَ كَلامُهُ مُطابِقًا لِلْقُرْآن تَفصِيلاً لَهُ وَتَبْيِينًا، وَعِلومُهُ عِلوم الْقُرْآن، وَإِراداتُهُ وَأَعمالُهُ ما أَوْجَبَهُ

(١) رواه الإمام أحمد (٢٤٦٠١، ٢٥٣٠٢، ٢٥٨١٣)، وقال الألباني في

«صحيح الجامع» (٤٨١١): «صحيح».

(٢) (ص ١٩٦).

ونذب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن،
ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما
كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه
والجهاد في إقامته؛ فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها
بالقرآن وبالرسول وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها:
«كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ».

وهو زاد المؤمنين، وروح قلوبهم وغناء نفوسهم؛ بل
إن حياة الإنسان الحقيقية لا تكون إلا بالقرآن الكريم،
ولهذا سمّاه الله ﷻ روحاً في غير ما آية، قال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن
جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ]، وقال في بدء سورة النحل أو
سورة النعم - كما يسميها بذلك أهل العلم -؛ لكثرة ما عدد
الله فيها من نعمه: ﴿أَفَحِ آمُرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴿سُورَةُ الْفَخَالِ﴾

فَسَمَّى رَبُّنَا - جَلَّ وَعَلَا - وَحْيَهُ الْحَكِيمَ، وَذَكَرَهُ الْعَظِيمَ

الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ: ﴿رُوحًا﴾؛ لِأَنَّ حَيَاةَ الْقُلُوبِ الْحَقِيقِيَّةَ إِنَّمَا

تَكُونُ بِهَذَا الْقُرْآنِ؛ وَسَمَّى ﷺ الْمَلَكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ

وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «رُوحًا»، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

﴿١٩٣﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ]، وَقَالَ: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾

[الْبَقَرَةُ: ٥] أَيِ جَبْرِيلَ، فَسَمَّاهُ رُوحًا؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي

بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ

حَيَاتِهِ الْحَقِيقِيَّةَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ بِحَسَبِ حَظِّهِ

وَنَصِيبِهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَتَطْيِيقًا.

ولهذا يقولُ اللهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿أَلَمْ

يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسَقُوا ﴿١٦﴾﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا

لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴿سُورَةُ الْحَٰرِّ﴾ .

أي كما أَنَّ الأرض الميّتة تحيى بالماء، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾
﴿سُورَةُ الْحَٰرِّ﴾، فكَذَلِكَ الْقُلُوبُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْيَى، وَأَنْ
تَذُوقَ طَعْمَ الْحَيَاةِ، وَأَنْ تَتَلَذَّذَ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا
بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَبِدُونِ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ يَعِيشُ الْإِنْسَانُ فِي
هَذِهِ الْحَيَاةِ عَيْشَةً بَهِيمِيَّةً لَا عَيْشَةً حَقِيقِيَّةً، وَهَذَا يَقُولُ
الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٣﴾﴾ ﴿سُورَةُ طٰهٍ﴾، وَنَفْيُ الضَّلَالِ فِيهِ إِثْبَاتُ
الهُدَايَةِ، وَنَفْيُ الشَّقَاءِ فِيهِ إِثْبَاتُ السَّعَادَةِ؛ فَمَنْ أَرَادَ لِنَفْسِهِ
هُدَايَةً وَسَعَادَةً فَعَلِيهِ بِالْقُرْآنِ، وَيَقُولُ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿طه
﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾﴾ ﴿سُورَةُ طٰهٍ﴾ [أي: إِنَّمَا
أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِتَسْعَدَ، وَقَدْ قِيلَ فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ ^(١)

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٢).

أَنَّهُ لَمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِهِ، قَامَ بِهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ،
 فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا أُنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ
 إِلَّا لِيَشْقَى! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا أُنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى
 ٢﴾، أَي: إِنَّمَا أُنْزَلَنَاهُ عَلَيْكَ لِتَسْعَدَ، فَالسَّعَادَةُ الْحَقِيقِيَّةُ،
 وَهَنَاءُ الْعَيْشِ، وَذَوْقُ طَعْمِ الْإِيمَانِ وَحُلَاوَةِ الدِّينِ إِنَّمَا
 تَكُونُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كِتَابِ رَبِّنَا ﷻ.

ولهذا جاء في القرآن آياتٌ عديدةٌ فيها أَمْرُ اللَّهِ ﷻ
 عِبَادَهُ بِتَدَبُّرِ هَذَا الْقُرْآنِ حَتَّى يَذُوقُوا حُلَاوَتَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا
 يَذُوقُ حُلَاوَةَ الْقُرْآنِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا مَنْ تَدَبَّرَ آيَاتِهِ،
 وَعَقَلَ مَضَامِينَهُ، وَفَهَمَ مَعَانِيَهُ، وَهَذَا يَقُولُ شَيْخُ
 الْمَفْسَّرِينَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ: «إِنِّي أَعْجَبُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ
 يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ؟!»^(١).

(١) حكاه عنه ياقوت الحموي في ترجمته له في «معجم الأدباء»

ولهذا جاء في القرآن آيات كثيرة فيها الأمر بتدبر القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ]، ويقول - جل وعلا -: ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ]، ويقول - جل وعلا -: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [سُورَةُ هَاجٍ]، وأخبر ﷺ أن سبب ضلال من ضلَّ وهلك من هلك وضياع من ضاع؛ البعد عن القرآن وعن تدبره، وبيّن الله ﷻ أن هؤلاء وأمثالهم لو تدبروا القرآن لوجدوا فيه شفاء الصدور وصلاح القلوب وسعادة الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ نَكِصُونَ ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ] مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَحِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ]، أي لو أنهم تدبروا

الْقَوْلَ وَعَقَلُوا مَعْنَاهُ، وَفَهَّمُوا دِلَالَاتِهِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ هَذَا
النُّكُوصَ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَلِمَا حَصَلَ لَهُمْ هَذَا الضَّلَالِ
وَالضَّيَاعِ وَالْفَسَادِ!! وَهَذَا يَدُلُّنَا دَلَالَةً بَيِّنَةً عَلَى أَنَّ ضَيَاعَ
الْإِنْسَانِ وَفْسَادَهُ وَانْحِرَافَهُ وَزِيغَهُ بِحَسَبِ بُعْدِهِ عَنْ هَذَا
الْكِتَابِ الْعَظِيمِ وَهَذَا النُّورِ الْمُبِينِ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُ فِي
دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ.

وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ ﷻ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ
«ذِكْرًا»، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١٠﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]،
وَقَالَ: ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ [سُورَةُ هَاجَةَ]؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ ذِكْرُ
خَبَرٍ مِّنْ قَبْلِنَا، وَنَبَأٌ مَا بَعْدَنَا؛ فِيهِ ذِكْرُ أَسْمَاءِ رَبَّنَا ﷻ
وَأَوْصَافِهِ، فِيهِ ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فِيهِ ذِكْرُ الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ
وَالنَّوَاهِي، فِيهِ ذِكْرُ الْقُلُوبِ، فِيهِ ذِكْرُ مَا فِيهِ فَلَاحُ الْعَبْدِ
وَصَلَاحُهُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ.

وَإِذَا كَانَ سَمَاءُ رَبَّنَا - جَلَّ وَعَلَا - فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ

(ذِكْرًا) فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ مَنْ ابْتَعَدَ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَانَ مِنَ الْغَافِلِينَ! وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ بَعِيدًا عَنِ الْغَفْلَةِ سَالِمًا مِنْهَا إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ حِظٌّ وَنَصِيبٌ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ الَّذِي فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَذِكْرُ الْعَالَمِينَ وَفَلَاحُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ ﷻ هَذَا الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الْحَجَّةُ: ٢١]، فَالْجَبَلُ الْأَصَمُّ الصَّلْبُ لَوْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ لَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُلُوبِ تَرُدُّ عَلَيْهَا زَوَاجِرُ الْقُرْآنِ، وَقَوَارِعُ الْقُرْآنِ، وَمَوَاعِظُ الْقُرْآنِ فَلَا يَتَحَرَّكُ فِيهَا سَاكِنٌ، بَلْ تَبْقَى عَلَى قَسْوَتِهَا.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهَا فَاطِرُهَا وَبَارِيهَا أَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَ عَلَيْهَا كَلَامَهُ لَخَشَعَتْ وَلَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَيَا

عجبًا! مِنْ مَضْغَةِ لَحْمٍ أَقْسَى مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ تَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهَا وَيُذَكَّرُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَلَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ وَلَا تَنْيَبُ، فَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَى اللَّهِ ﷻ وَلَا يَخَالِفُ حِكْمَتَهُ أَنْ يَخْلُقَ لَهَا نَارًا تَذِييُهَا؛ إِذْ لَمْ تَلْنِ بِكَلَامِهِ وَذَكَرَهُ وَزَوَّاجِرَهُ وَمَوَاعِظِهِ، فَمَنْ لَمْ يَلْنِ لِلَّهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ قَلْبُهُ وَلَمْ يَنْبِ إِلَيْهِ وَلَمْ يُذْبِ بِحُبِّهِ وَالبِكَاءِ مِنْ خَشْيَتِهِ فَلَيْتَمَتَّ قَلِيلًا؛ فَإِنَّ أَمَامَهُ الْمُلِينَ الْأَعْظَمَ وَسَيُرَدُّ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَرَى وَيَعْلَمُ»^(١).

فَذَكَرَ الْقُلُوبَ وَيَقْطَعُ النُّفُوسَ وَصَلَّاحَهَا إِنَّهَا يَكُونُ بَارْتِبَاطُهَا بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ رِبْعًا لِلْقَلْبِ حَيِّيٍّ مَعَ الْعَبْدِ حَيَاةً جَمِيلَةً هَنِئَةً سَعِيدَةً، وَقَدْ جَاءَ فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ فِي طَرْدِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ

(١) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٢٢١).

الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي،
وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي»^(١).

تأمل أخي! - وفقك الله - هذه المعاني التي هي ثمار
القرآن وآثاره، قال: «أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ
صَدْرِي»، لما ذكر القلب قال: «رَبِيعَ قَلْبِي»، ولما ذكر الصدر
قال: «نُورَ صَدْرِي»؛ لأنَّ الصدر محيطٌ بالقلب، فإذا أَضاء
الصدرُ انعكس ضياؤه على كلِّ ما في داخله، ولما ذكر القلب
ذكر الربيع؛ لأنَّ القلبَ هو مَنْبَعُ الْفَضَائِلِ حينَ يَوْفَقُ
لِلصَّلاحِ وَالزَّكَاةِ، «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ
صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ
الْقَلْبُ» متَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢)، وهذا فيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أَنَّ القلبَ
عندما يصلحُ بالقرآن يكون ربيعًا، والربيعُ يُثمرُ أطيابَ

(١) رواه أحمد (٣٧١٢) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه
الألباني في «الصَّحِيحة» (١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه.

الثَّمَرُ وَأَجْمَلَ الزُّهُورَ وَأَحْسَنَ الْوُرُودَ وَأَعْبَقَ الرَّوَاحِ.

وفي قوله: «وَجِلَاءَ حُزْنِي» فائدةٌ عظيمةٌ من فوائد القرآن أنَّ جِلَاءَ ما يكونُ في القلبِ من أحزانٍ وآلامٍ وهمومٍ وغمومٍ، إنّما يكونُ بهذا الكتابِ العظيم الذي هو في الحقيقة كتاب السَّعادة، ولا يمكنُ أن تسعدَ بالقرآن بمجرد وضعه مزخرفاً في رفٍّ في البيتِ أو في موضعٍ جميلٍ، ولا يمكنُ أن يذوقها بمجرد هذِّ قراءته دونَ تدبُّرٍ ولا تعقُّلٍ ولا تفهّمٍ، ولا عملٍ بهذا الكتاب؛ بل سعادةُ القرآن وحلاوته وهناءُ العيش المحصَّلة بالقرآن الكريم لا تكونُ إلّا بتدبُّره وتعقُّل معانيه، والعمل بما فيه.

ولهذا قال غيرُ واحدٍ من أهل العلم في معنى قوله ﷺ:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

[البقرة: ١٢١]، أن حقَّ التلاوة لا يتمُّ إلّا بثلاثة أمور:

الأمر الأول: قراءة القرآن وحُسن ترتيله وحفظ ما تيسر منه.

الأمر الثاني: التدبُّر وفهم الخطاب، قال تعالى: ﴿كَتَبُ

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَمْ

يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾

[المؤمنون: ٢٤]، ويكون همُّه وهو يتلو القرآن ليس متى يُختم

السُّورة، أو متى ينتهي من التلاوة؛ وإنما يكون همُّه وهو يتلو

القرآن متى أعقِلَ عن الله الخطاب؟ متى أفهمُ كلامَ الله؟ متى

يتأثَّر قلبي بالقرآن؟ متى أعملُ بالقرآن؟ متى أكونُ من

الصَّادقين الموصوفين بذلك في القرآن؟ متى أكون من

التَّوَّابين، من المنيين، من الذاكرين، من المصلِّين، من

القانتين، من المتصدِّقين... إلى آخره، متى أكون كذلك؟

قال الأجرى رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تدبَّر كلامه عرف الربَّ

عَزَّوَجَلَّ، وعرف عظيمَ سلطانه وقدرته، وعرف عظيمَ تفضُّله

على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرضِ عبادته، فألزم

نفسه الواجب، فحذرَ ممَّا حذَّره مولاه الكريم، فرَغِبَ فيما رَغَبَه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاءً فاستغنى بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنسَ ممَّا يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسُّورة إذا افتتحها متى اتَّعَظَ بما أتلو، ولم يكن مراده متى أختَمَ السُّورة، وإنَّما مراده متى أعقل عن الله الخطاب، متى أزدجر، متى اعتبر؛ لأنَّ تلاوة القرآن عبادةٌ، لا تكون بغفلة، والله الموفِّق لذلك»^(١).

فيقرأ وهو يجاهدُ نفسه على تحقيق ذلك، ولهذا قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي بعض كتبه: «فِقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفَهُمٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خِتْمَةٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُمٍ، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الْإِيمَانِ وَذَوْقِ حِلَاوَةِ الْقُرْآنِ»^(٢)، آيَةٌ

(١) «أخلاق حملة القرآن» للأجري (ص ١٠).

(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ١٨٧).

واحدةً تقرؤها وتتدبرها وتداوي بها نفسك وتتأمل في معانيها خيرٌ وأنفع من هذَّ سريع.

ولهذا كان بعض السلف يقوم الليل بآية واحدة، ونبينا - عليه الصلاة والسلام - قام ليلة بآية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: (١)]^(١)؛ وجاء في «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [١] يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٢).

فعندما تتدبر وتتأمل ولو آية واحدة تعيش معها ليلة تداوي بها نفسك، وتعالج بها مرض قلبك، وتقوي بها

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٨٨)، وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٢٠٥).

(٢) رواه البخاري (٦٦٤٣).

إِيمَانَك، وتقوّي بها توكلُّك، وتقوّي بها صدقك مع الله،
وصلّتك بالله - تبارك وتعالى - خيرٌ لك من أن تُمضي التّلاوة
هَذَا بدون عَقْل ولا فَهْمٍ.

والأمر الثالث: العمل بالقرآن الكريم

قال الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أُنزل القرآن لِيُعمَلَ به،
فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا»^(١)، فالَّذِي أُنزل لأجلِهِ القرآن أن
نعمَلَ به، وأن نكونَ مِنْ أَهْلِ القرآن، ولا يمكنُ أن يكونَ
العبدُ مِنْ أَهْلِ القرآن بمجردَ حفظِ حروفِهِ أو تلاوةِ آيَاتِهِ
وسوره فقط، بل لابدَّ مِنْ الفَهْمِ للمعاني، ولابدَّ مِنْ العملِ
بهذا الكتابِ العظيم، وقد تحدّث الإمامُ الحسن البصري
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن بعضِ قُرّاءِ زمانِهِ، وهو مِنْ كبارِ عُلَماءِ التّابعين القرنِ
الَّذِي يلي قرنِ الصّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فقال: «إِنَّ أَحَدَهُمْ ليقول:

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص ١٤٨) لابن قتيبة، «مفتاح دار
السّعادة» (١/ ١٨٧).

لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً» مقصوده أنه أتقن حفظه وجود تلاوته وحقق مخارجة قال: «وقد - والله - أسقطه كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء مثل هذا؟! لاكثر الله في الناس مثل هؤلاء»^(١).

ليست تلاوة القرآن مجرد قراءة أو حفظ لحروفه، بل لابد من التدبر، ولا بد - أيضاً - من العمل، والعمل بالقرآن يسمى تلاوة، إذا صليت فصلاتك تلاوة للقرآن، وإذا صمت فصيامك تلاوة للقرآن، وهكذا سائر العبادات فعلها يعدُّ تلاوة للقرآن، والله عز وجل يقول: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ] أي تبعها، فالاتباع من معاني التلاوة، والقرآن إنَّما أنزل لأجل ذلك أي ليعمل به العبد.

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٧٩٣).

فَأَنْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَتَمُرُّ بِكَ أَوَامِرُ، وَنَوَاهٍ، وَزَوَاجِرُ،
وَقَوَارِعُ، وَمَوَاعِظُ، وَتَذَكِيرَاتُ، وَبَصَائِرُ؛ فَمَا حَظُّكَ
مِنْهَا؟ وَمَا نَصِيْبُكَ؟

يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ إِمَّا خَيْرٌ يَأْمُرُ
بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ» ^(١).

أَمَّا إِذَا كُنْتَ لَا تَرْعِيهَا سَمْعَكَ وَتَمُرُّ وَكَأَنَّ الْأَمْرَ لَا
يَعْنِيكَ، وَكَأَنَّ الْخُطَابَ لغيرِكَ؛ فَمَتَى تَسْتَفِيدُ مِنَ الْقُرْآنِ؟
وَمَتَى يَكُونُ لِلْقُرْآنِ أَثَرٌ عَلَيْكَ؟

وَلِهَذَا يَحْتَاجُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَجَاهِدَ نَفْسَهُ
عَلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ لِتَلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛
بِحُسْنِ الْقِرَاءَةِ وَالْحِفْظِ وَالتَّلَاوَةِ، وَبِحُسْنِ التَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ
وَالْفَهْمِ لِمَعَانِيهِ، وَبِالْعَمَلِ بِهِ.

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١/١٩٦).

وقد يَسِّرَ الله هذه الأمور الثلاثة للعباد كما قال

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٧﴾

[سُورَةُ الْقَيْسِيَّةِ] قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «يسره للذكر، ويسر ألفاظه

للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيهِ للامتثال»^(١).

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قد وصفَ هذا القرآن بأنه شفاء لما في

الصُّدُورِ: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا

يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ]، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي

ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [مُضَلَّتْ: ٤٤]، ويقول - جَلَّ

وعلا -: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يُونُسَ: ٥٧].

يقول قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّكُمْ عَلَى دَائِكُمْ

ودوائِكُمْ، أَمَّا دَاؤُكُمْ فَذُنُوبُكُمْ، وَأَمَّا دَوَاؤُكُمْ فَالاسْتِغْفَارُ»^(٢).

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (ص ٤٠).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٤٥)، والأصبهاني في «التَّغْيِبِ
والتَّرهيب» (٢٢١).

والأمراض التي تصيب القلب كثيرة، لكنها ترجع إلى نوعين: أمراض الشهوات، وأمراض الشبهات، والدواء الناجع والبلسم الشافي للمرضين القرآن الكريم.

فالقرآن فيه مداواة للقلوب وشفاء لما في الصدور؛ ولكن متى يحصل الاستشفاء والتداوي به؟ وكيف يُستشفى من هذه الأمراض بكتاب الله ﷻ؟

وهل يمكن أن يتحقق للقلب شفاءً بالقرآن! وواقع المرء مع القرآن أنه لا يُجاوز تراقيه، يتحرك به لسانه فقط أما قلبه فمحروم منه؟ هيهات؛ بل لابد أن يصل القرآن إلى القلب، لابد أن يتحرك القلب بآيات القرآن ومعانيه، وبدالات القرآن ومضامينه، وبمواعظ القرآن وتذكيراته، لابد أن يتحرك القلب بذلك حتى تتحرك فيه الحياة، وحتى تزول عنه الأمراض، وتذهب عنه الأسقام؛ فإن الآية إن وقعت في القلب موقعاً عظيماً عملت فيه

عملاً عجيباً، روى البخاري عن جُبَيْر بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقرأُ في المغربِ بالطُّورِ، فلَمَّا بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴾ (٣٧) [سُورَةُ الطُّورِ] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ».

وعليه أن يتداوى منه بحسب مرضه؛ فلو كان في الإنسان - مثلاً - مخاوفٌ وأوهامٌ، ويقول: أنا في الليل أفرع، أو أنا أخافُ من كذا، يداوي نفسه بقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٥) [سُورَةُ النِّعَمِ] يكرّر الآية حتّى يمتلئ قلبه خوفاً من الله وتذهب عن قلبه المخاوف التي يُلقِيها ويزرعها الشَّيْطَانُ في قلبه.

وإذا وجد من نفسه ضِعْفاً في التَّوَكُّلِ على الله، يردّد قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطَّلَاق: ٣]،

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

وإذا كان مُبتلىً بالنظر إلى النساء، وتتحرك فيه أمورٌ وهو في صراعٍ مع نفسه في الخلاص منها، يداوي نفسه بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ [سُورَةُ النُّورِ] يكررها ويتأمل فيها، ويحاول أن تصل إلى قلبه.

وإذا كان عنده عقوقٌ لوالديه وتقصيرٌ في حقها يقرأ متدبراً: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَابْلُغِ الدِّينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ].

وإذا وجد في نفسه ضعفاً في إيمانه يردّد آياتٍ يداوي بها نفسه، ويحاول أن تصل هذه الآياتُ إلى قلبه وأن تتمكن فيه، فالآية إذا وصلت القلب حصل الشفاء، وتحقق الثواب

يأذن الله - تبارك وتعالى -؛ فالمشاكل كلها سببها عدم وصول القرآن إلى القلب، أمّا إن دخلت الآية القلب زال المرض أيّا كان؛ فأحياناً يكون مرضه الكفر بالله ﷻ فيتحوّل إلى إسلام، وأحياناً يكون مرضه النفاق فيتحوّل إلى الإيمان، وأحياناً يكون مرضه الفسق والفجور والمعاصي والآثام فيتحوّل إلى استقامة وهداية وصلاح وعبادة لله - تبارك وتعالى -.

خَلَقَ كَثِيرٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﷻ زالت أمراضهم وشُفِيَتْ أَسْقَامُهُمْ بِسَمَاعِهِ وَالِاسْتِشْفَاءِ بِهِ؛ والقصاص في هذا كثيرةٌ جدًّا؛ وكثيرٌ من النَّاسِ يتحدث أنَّ هدايته بسبب آيةٍ واحدةٍ سمعها وأخذَ يردّها ويُحِيلُهَا فِي نَفْسِهِ وَتَتَكَرَّرُ فِي قَلْبِهِ، حَتَّى جَعَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهَا هِدَايَتَهُ وَصَلَاحَهُ.

فالفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ مِنْ أُمَّةِ التَّابِعِينَ أَمْضَى شَطْرًا مِنْ حَيَاتِهِ - قَبْلَ تَوْبَتِهِ - يَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ، تَهَابُهُ الْقَافِلَةُ بِكَامِلِهَا إِلَى أَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ، ذُكِرَ فِي تَرْجُمَتِهِ فِي «سِيرِ أَعْلَامِ

النُّبَلَاءُ»^(١) أَنَّ سَبَبَ تَوْبَتِهِ أَنَّهُ عَشَقَ جَارِيَةً، فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْتَقِي
الْجُدْرَانَ إِلَيْهَا إِذْ سَمِعَ تَالِيًا يَتْلُو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الْحَاجِّاتِ: ١٦]، فَلَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: بَلَى يَا
رَبِّ! قَدْ آنَ، فَرَجَعَ، فَأَوَاهَ اللَّيْلُ إِلَى خَرِبَةٍ فَإِذَا بِهَا سَابِلَةٌ،
فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَرَحُلْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَتَّى نُصْبِحَ؛ فَإِنَّ
فُضَيْلًا عَلَى الطَّرِيقِ يَقْطَعُ عَلَيْنَا.

قال: فَفَكَّرْتُ، وَقُلْتُ: أَنَا أَسْعَى بِاللَّيْلِ فِي الْمَعَاصِي،
وَقَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَاهُنَا يَخَافُونِي، وَمَا أَرَى اللَّهَ سَاقِنِي
إِلَيْهِمْ إِلَّا لَأَرْتَدَّعَ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَبْتُ إِلَيْكَ وَجَعَلْتُ
تَوْبَتِي مُجَاوِرَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ.

وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ، وَبَقِيَ فِيهَا عَابِدًا إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ ﷻ،
وَفِي مَكَّةَ يَأْتِي الْعُلَمَاءُ وَالْمُحَدِّثُونَ وَيَتَلَقَّى عَنْهُمْ الْعِلْمَ وَيَأْخُذَ

(١) (٨/٤٢٣).

عنهم الفقه ويحفظ عنهم الأحاديث، ولا تفتح الآن كتاباً من
كُتب التفسير أو كتاباً من كُتب الفقه أو الحديث أو غيرها إلا
وتجد النُّقُولَ العظيمةَ عن هذا الإمام، آيةً واحدةً غيّرت
حياته وحولت مساره من مجرم كبيرٍ إلى عابدٍ من العباد
وصالح من الصالحين بل إمام من الأئمة.

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يتفكر في أمراضه وفي
أسقامه وفي مشاكليه، ويبدأ يداوي نفسه بالقرآن، إذا كان
متهاوناً في الصلاة مقصراً يقرأ آياتٍ تذكّره بمكانة الصلاة
ومنزلتها يردّها ويسأل ربه - تبارك وتعالى - أن يجعله من
أهلها، وبهذه الطريقة يحيى قلبه - بإذن الله تعالى -.

وينبغي له قبل أن يقرأ القرآن أن يتعلّم كيفية
الاستفادة منه حتّى يتمّ له الانتفاع به، وقد ذكر ابنُ
القيم رحمته الله في هذا قاعدةً جليّةً القدر عظيمة النفع
فقال: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند

تلاوته وسماحه وألقى سمعك واحضر حضور من يخاطبه
به مَنْ تكلَّم به سبحانه منه إليه»^(١).

فهذه طريقة نافعة، وعظيمة جداً للانتفاع بالقرآن
والاستشفاء به، لا أن يقرأ الآيات ويمضي وكأن الأمر لا
يَعْنِيهِ، بل عليه أن يقفَ، ويتأمل ويتدبَّر، ويستعين بكتب
التفسير، وكلام أهل العلم، وإذا وصلت الآية للقلب
وتمكَّنت من القلب حصل الشفاء بإذن الله - تبارك وتعالى -،
وهذا معنى قول الله ﷻ: ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾، أمَّا مجرد
التلاوة والهدؤ وعدم التدبُّر وعدم التعقُّل لكلام الله ﷻ
ولمعاني القرآن الكريم، فهذا لا يتحقَّق به الفائدة المرجوة
والثمرة المطلوبة التي ينبغي أن يظفر بها العبدُ مع هذا
الكتاب العظيم المبارك كتاب الله ﷻ.

(١) «الفوائد» (ص ٥)، وانظر «الفتاوى» لابن تيمية (٤٨/١٦ - ٥١)
و(٢٣٦ - ٢٣٧).

وليَحذر من أن يكونَ في هذا الباب على النقيض
كما قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الرَّجَلَ لِيُصَلِّيَ
ويلعنُ نفسه في قراءته فيقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى
الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وإنَّه لظالم»^(١).

هذا وإنَّ الكلام عن القرآن وفضله وثماره وآثاره،
والآداب التي ينبغي أن يكونَ عليها العبد المؤمن معه، واسعٌ
جدًّا، ولعلَّ في هذا القدر خيرٌ ونفعٌ وفائدةٌ بإذن الله تعالى.

وأسأَلُ اللهَ الكريمَ ربَّ العرشِ العظيمِ بأسمائه الحُسنى
وصفاته العليا، وبأنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلاَّ هو أن يجعلَ القرآنَ
الكريمَ ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وجلاءَ أحراننا وذهابَ
همومنا وغمومنا، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل
الله وخاصَّته، وأن ينفَعنا بالقرآن، وأن يجعلَ القرآنَ حَجَّةً لنا

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٤٨٤).

لا علينا، وأن يوفّقنا لتدبُّره على الوجه الَّذي يُرضيه والعمل
به، وأن يجعلنا من أهل السَّعادة والفوز في الدُّنيا والآخرة،
وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعمَ على عبده ورسوله نبينا محمدٍ
وآله وصحبه أجمعين^(١).



(١) أصل هذه الرِّسالة محاضرة أُلقيت في دبي في شهر رمضان المبارك عام
(١٤٣٠هـ).